
كتاب الشهر
مخطوطة
رواية الشيطان
للكاتب الروسي دستويفسكي
عرض وتحليل
صدقي اسماعيل

في شتاء ١٨٦٩ كتب ديستويفسكي الى صديقه الشاعر مايكوف : « منذ ثلاثة ايام بـــدأت بكتابة رواية .. لمجلة « الرسول الروسي ». وبعد شهرين كتب اليه ثانية :« لقد وقعت على فكرة غنية ، احدى هـذه الأفكار التي تترك أثراً عميقاً في الجمهور ، انها من نوع « الجريمة والعقاب » ولكنها أساسية اكثر منها ،وأقرب الى الواقع ، انها تتناول مباشرة اهم المشاكل الراهنة ،.. لم أكتب من قبل في مثل هذه المتعة وهذه السهولة . ». وكان ديستويفسكي قد وعد « كاتلوف » مـدير المجلة ، بان يوافيه بالفصول الأولى خلال عام ١٨٧٠ ، ولكنه لم يستطع الوفاء بوعده . فخلال شهور طويلة لم يكتب اكثر من عدة صفحات .. وكتب الى الناقد ستراخوف: « مامن كتاب أخذ مني هذا الجهد . » (١)

ولم يتح للصفحات الأولى من هذه الرواية ان تظهر الا في شتاء ١٨٧١ اي بعد عامين من نشوء فكرتها عند ديستويفسكي . وخلال هذه الفترة الطويـــلة التي تسمى عادة بمرحلة الانضاج ، كتب الكاتب الروسي الكبير ، مخطوطة مسهبة تتضمن ملاحظات تحليلية عن أشخاص الرواية. وهذه المخطوطة كانت مسودة لرواية «الشياطين» التي تعتبر أروع ما كتب ديستويفسكي من الوجهـــة الفنية ، وأعمق ماامتدت اليه تجربته الفلسفية .

(١) Boris de Schlozer — Carnets des « démons » 1954

وعلى الرغم من أن هذه الرواية الكاملة تغني عن كل شرح ، فان الواقعية الفنية العنيفة التي صورت بها الحوادث والاشخاص تستأثر باهتمام القارئ إلى حد تكاد أن تتبدد فيه خطورة أفكارها الأساسية . وهي تجسيد للتساؤلات الفلسفية القلقة التي كانت تملأ نفس ديستويفسكي وهو على اعتاب الخمسين من عمره .

ومع ان هذه التساؤلات تدور حول ناحية رئيسية هي مشكلة الايمان بالحقيقة الاخلاقية ، ومدى ماتوغل فيه الحياة الانسانية من القلق والشر والعذاب ، حين يتزعزع الايمان بالحقيقة ، فان ديستويفسكي قد عرض من خلال هذه المشكلة تجربة الوعي الانساني بصورة عامة : ما هو المعنى الحقيقي لوجود الانسان على الارض؟ وماذا يستطيع من أجل مصيره ؟..

إنها التجربة التي تكون نقطة البداية في كل مجتمع يعاني قلق التفتح لحياة جديدة تنذر بها نزعات التمرد التي تغمر النفوس بالثورة على الواقع والتطلع إلى تغييره من الجذور ، وفي مثل هذه الفترة يعيش المجتمع العربي ، وهذا مايجعل هذه المشاكل ، وإن كانت في إطار روائي ، على جانب من الأهمية والخطورة بالنسبة للوجدان العربي المعاصر الذي يثقله التباس المبادئ والافكار وارتباك المفاهيم الخلقية .

ورواية « الشياطين » في خطوطها العامة ، هي تصوير لمأساة التناقض في الاهواء البشرية ، الجموح الشقي الذي ينطوي عليه واقع الحياة ، حين يفتقد الانسان حقيقته الخلقية ، وتلتبس عليه القيم التي تمنحه الجدارة والاطمئنان ، عندئذ تستنفده التجربة ، إذا صح التعبير — في اكثر صورها قلقاً وضراوة . كتب ديستويفسكي في المخطط الفني للقصة :

« نزوات عنيفة مهووسة ..: ظمأ إلى الشهوات جامح لا يرتوي ، ظمأ إلى الحياة لايخمد. انواع شتى من الشهوات ، وشتى وسائل الاشباع . الوعي الكامل بتحليل كل شهوة ، دون النظر إلى انها قد تتخاذل ... ذلك لانها تقوم على حاجة الطبيعة البشرية ذاتها ، بنية الجسد ، الشهوات الفنية حتى الارهاف، شهوات التصوف ، شهوات الفقر حتى التسول، شهوات السرقة والاغتصاب . شهوة الانتحار . »

وتشير مخطوطات ديستويفسكي الاولى ، إلى انه كان عازماً على كتابة رواية تصور جموح الغرائز في أقسى مظاهره ، وقد وضع لهذه الرواية اسم « حياة خاطئ كبير » ولكنه لم يكتبها . والغالب انه استبدل **بها رواية « الشياطين »** . ويرجع الايحاء المباشر في هذه الرواية **الى اكتشاف جمعية ارهابية عام ١٨٦٩** اقترنت باسم **نيتشاييف** أحد تلاميذ الفيلسوف الفوضوي **باكونين** وكان من ضحاياها طالب بريء ، وكان موته من الاحداث المثيرة بالنسبة للكاتب، ولكن شخصية

نيتشايف هي التي استأثرت باهتمامه ، وقد وجد فيها نموذجاً للشر الذي لايملك اي مبرر غير ان يكون غاية لذاته . وقد تقمص ديستويفسكي نيتشايف في مسودة الرواية يقول :

« الفكرة الرئيسية عند نيتشايف هي ان لا تترك حجراً على حجر . هذا هو الاساسي ، بل الضروري اكثر من اي شيء آخر . يقول للامير : أصارحك بانه ليس من شأني ان أفكر باننا سوف نحظى بحياة جيدة أم لا ، ولكنها على كل حال سوف تكون أفضل مما هي عليه الآن ... ماسوف يحدث من تلقاء ذاته ، في قرن ، سيحدث الآن دفعة واحدة ، لأمر أسرع بكثير حين تستخدم السلطة ، كل شيء سوف يكون للقضاء على الانقسام والجهالة .. »

والامير الذي يوجه اليه الحديث هو نيتشايف نفسه . انهما شخص واحد ، يمثل ستافروغين — فيما بعد — البطل الاول في الرواية الكاملة. قال ديستويفسكي لأحد أصدقائه في ذلك الحين : « ما أكتبه يعبر عن نزعة في أعماقي ، أريد أن أشرح نفسي في حرارة، ان اعلن كل أفكاري » ..

غير أنه في الواقع لايشرح شيئاً ؛ فمنذ ان يكسو هذه الافكار بالوقائع الحية ، يبدو ديستويفسكي الفنان حريصاً على أن يغفل جميع المبررات في السلوك الانساني ، يقول في مكان آخر من المخطوطه :

« الامر الرئيسي انه طوال الرواية لاتشرح الاسباب التي جاءمن أجلها نيتشايف . » وفي كثير من العبارات المتناثرة ، يبدي قلقه من الخروج على الفن الروائي : « ابة فوضى !.. » . « ان أكوم الافكار واحصرها .. » ماذا يمكن ان يخرج من هذا كله ..؟... كل شيء يتعلق بالصيغة ، يجب ان أخلق صيغاً «فنية» تستوعب هذا الحشد من الافكار .. « لكم تبدو جافة تبعث السأم ... »

غير انه ينتهي أخيراً الى هذا اللون الاصيل من الوان الأداء . وهو مايتميز به فنه الروائي دائماً :

« لاتفسير ولا شرح عن نيتشايف (أو أي شخص آخر) ، بل يجب الاقتصار على تصوير الأعمال التي يقوم بها .. ان اجعل القارىء في ارتباك .. »

وعلى هذا النحو يتاح للشخصية الروائية ان تسيطر على القارىء سيطرة كاملة ، يجب ان يبقى البطل الروائي لغزاً غامضاً يحاط بهالة من التساؤل

والانتظار ، ان لايكون مسرحاً للخيال — كما هو شأن الابطال التقليديين للقصة — بل تجربة ذاتية للقارىء نفسه . وهو مايشير اليه سارتر في معرض حديثه عن الالتزام في فن الرواية مستشهدا بشخصية ستافروغين ، يقول : «عندما أقرأ ، لا أحلم ، بل أفك الرموز » ومن دون هذا فلا معنى لكتابة الرواية — كما يقول ديستويفسكي إنها تصبح ركاماً من الاوراق الجافة (٢) » على حد تعبير سارتر ايضاً .

بهذه الروح يتساءل ديستويفسكي في المخطوطة: ماذا كان يريد نيتشايف ؟ لقد استقر لديه ان كل شيء ينبغي ان يدمر ؛ فالواقع الذي يحياه الناس هو الشقاء الذي لايحتمل . ذلك مالايستطيع ان ينكره أحد ، إلا اذا فقد احساسه بكيانه الشخصي ونزواته وآلامه ، وما دام الشقاء هو واقع الجميع ، فلابد أن تكون مظاهره الاولى في طبيعة المجتمع . يقول **نيتشاييف** :

« أن نلغي المعتقدات ، الزواج ، الاسرة ، الملكية .. وكما ترى لاأعرف ماذا سيكون بعدي ... ولكنني أعرف ان هذه الامور هي أساس الحياة الراهنة ، وان هذا الاساس هو شر السموم ... ولكن ذلك يعني الغاء المجتمع .. ومهما يكن من أمر فاننا نكون قد قضينا على السم .. »

ولكي يتوصل المرء الى مثل هذا الموقف ، لابد أن يكون قد أدان كل شيء .. اي فقد الايمان بكل شيء ، ومن ثم فانه لابد أن لايبقي حجراً على حجر .. ومن الطبيعي ان يكون سلبياً مضطرباً تتحرك الريبة في جميع تصرفاته . ولكن ستافروغين (نيتشايف في المخطوطة) يبدو على النقيض . لقد توصل الى هذه الادانة لانه صمم على العمل من أجل الخلاص .. وهذا التصميم هو العنصر الانساني الوحيد الذي احتفظ به ستافروغين في غمرة تحلله الخلقي الغريب . قد تكون هناك غاية قصوى هي تحرير الانسانية — كما يردد احياناً — ولكنه لايفكر بها على الاطلاق . المهم في البداية ان نقضي على الاكاذيب والترهات ... وكلمة الترهات هذه يطلقها ديستويفسكي في المخطوطة على كل مايؤمن به الناس في الواقع المتفسخ .. ومن أجل هذا الهدف المهم تقوم المنظمة الارهابية ؛ وقد حملت في قضية نيتشايف شعار الانتقام ؛ والكلمة الاولى هي العمل : يقول ديستويفسكي :

« ... ويسأله أحدهم . فيجيب : انكم تسألون كثيراً وتريدون ان تعرفوا سلفاً ؛ فاعلموا ان هذا كان حتى الآن يضيع الرجال العاملين .

سؤال – ولكن كيف لا اعرف سلفاً وفي وضوح ما أريد ، وما أتحمل فيه

---

(٢) J. P. Sartre — Situations I - Gallimard 1957

مسؤولية ارتكاب جريمة ؟.. يجيب نيتشاييف : كلمات فارغة ، ثرثرات . ألا يكفي ان تعرف ان كل فســاد سوف يدمر ؟ ولن تكون هناك انقسامات ، بل سوف تعمل الانسانية بصورة مشتركة . »

كيف يفهم هذا التناقض في شخصية ستافروغين؟ التزام الحرية الانسانية والعنف إلى حد القتــل والتدمير ؟ أهو شيء في الطبيعة البشرية ؟ الواقع ان هنـــاك حشداً من المتناقضات في طبيعة ستـــافروغين يقول ديستويفسكي في المخطوطة :

« طبـع ستافروغين : جميـــع النزعات النبيلة الى حد الافراط المخيف وجميع الأهواء العنيفة ... الخ . . يعتدي على الفتاة الصغيرة «داشا» بدافع الانانية ، ولأنــــه يكره مساعدة الآخرين ، بل لا يؤمن بها على الاطلاق . . »

ويقول عنه في مكان آخر :

« . ، شخصية خياليـة غامضة ، يجوب العـــالم ويسمع جميع الناس ، لكي يؤكد ذاته . . ،

ويعرض جانباً آخر من طبيعته :

« انه يسأم ، يريد السمو ، ولكن يعرف ان ذلك يعني ان ينفصل عن الارستقراطيين (وهو أمير في قمة هذه الطبقة) وعن دعاة الحيــاة القرية وعن العدميين . ولكن المسألة لديه هي : من هو اذن؟ الجواب : انه لاشيء . ان له من الذكاء ما يكفي لأن يدرك بانه لم يعد روسياً ؛ ومن ثم فهو يجد انــه ليس من الضروري ان ينتمي الى شعبه ، وحين يبدو له ما في هذا الموقف من حماقة ، يقول: إنني أمثل ذاتي . ولما كان لاينتمي لأي حزب فانه يستطيع ان يطلق احكاماً كليــة وان يصغي الى الجميع ولكن من أعلى . انــه يستنكر ويتهم ، ولكنه حين يفعل ذلك ، يسخر من نفسه ويشعر بالــدم ... »

« يقول : يدهشني انني لا أستطيع أن أعيش كالآخرين . (الجواب : لانــه يشعر بالتفوق عليهم .) ولكن فكرة المؤلف هي ان يصور (انساناً) يرى من الامور المهمة ان لاتكون له جذور .. »

وعلى الرغم من ان ديستويفسكي قد صور في الروايـــة هذا النموذج الغريب دون أن يحـكم على قيمته الانســـانية وجدارته فقد حرص على ان يبرز في شخصيته وعيـــاً شاملا للقضايا الكبرى التي تحيط بـــه . فعلى الرغم من طبيعته المعقدة ومظهره المتناقض ، كانت أفـكاره غنية إلى أبعد حد ، وكان يوحي بأن لديه سراً رهيباً ،

كما جاء وصفه في الرواية ، « كما لو ان وجهه يشبه قناعاً » (١) ، « ثم أبدى الوحش مخالبه » (١) . ومن خلال هذا المظهر تلوح القضية الاخلاقية على هذا النحو الغريب .

« كثيراً ما فكرت في الانتحار ، وفي كل حين كانت تأتيني فكرة جديدة: مثلا اذا اقترف الانسان جريمة أو عملا يدان من أجله ، او اية نذالة اي شيء يعد من المخازي ، تحفظ الانسانية ذكراه مدى اجيال ، وتبصق عليه ألف عام .. ثم تأتيني الفكرة: رصاصة في الرأس ويمحى العار الى الأبد . . . وماذا يهم العالم بعد ذلك .. » (٢)

والحقيقة ان تجربة ستافروغين هي تجربة الوجدان الانساني الذي انهارت فيه جميع القيم ، ولكنه احتفظ بفهم واضح لمأساة انهياره . ومن ثم كان استهتاره الجامح ونزواته الشريرة ، كان شقاؤه الذي جدد به عذاب الجميع ، **« العذاب انه جدارة الانسان »** ومن خلال هذه التجربة تثار جميع المشاكل الخلقية على نحو قاتم عنيف ؛ وليس ستافروغين هو الذي يثير هذه المشاكل بل الآخرون . كان مشروعه الخطير ، اشبه بالنور الكاشف ، ايقظ في نفوسهم جميع التساؤلات القلقة .

يقول ديستويفسكي عنه: حين أثار فكرة « احراق كل شيء »... خرج بالنتائج التالية :

١ — ان الاشخاص المملين الذين يعتبرون هذه المسائل فارغة ، ويرون ان الحياة ممكنة من دونها ، هؤلاء هم من العوام ، حشرات ، هشيم للنار .

٢ — ان الأمر يتعلق بمسألة رئيسية ، هل يمكننا الاعتقاد بأننا متمدنون ؟ التاريخ يجيب بالوقائع على هذا السؤال . لا ، لايمكننا ذلك.

٣ — هل هناك اخلاق اخرى ، قائمة على العلم : تعتبر ممكنة ؟ اذا كان مستحيلاً ، فالاخلاق الممكنة اذن هي في اعماق الشعب .

تلك هي التساؤلات الواضحة التي يقف بها **ستافروغين** في البداية امام الآخرين . وبين هؤلاء شخصية **ن . ب ميليكوف** (ليبوتين في الرواية) نموذج لرجل المبدأ، يصفه **ديستويفسكي** في المخطوطة .

« انه رجل فكرة ، العقيدة تقلقه وتتملكه على نحو متميز ، ذلك انها لاتسيطر على ذهنه فحسب ، بل تتجسد فيه ، وتتحول في كثير من المعاناة والألم . الى طبيعة في كيانه ... ومنذ ان تستقر لديه الفكرة ، فانها تلزمه بان يحولها مباشرة الى سلوك .. »

---

(١) Dostoevski — Les « possédés » Gallimard 32 édition 1958

(٢) الرواية صفحة ٢١٩

ويقول عنه ايضاً :

« ان تبديل المعتقدات لديه يعني تبديل الحياة ايضاً .. »

ويبدو هذا النموذج لأول وهلة ، صورة مناقضة لستافروغين الذي ينكر كل اعتقـاد ، ولكنهما يلتقيان في العمل المشترك ،لأن «ن.ب» كان في مرحلة من القلق ، وليس غريباً ان يكون الشك في طبيعته رجل المبدأ . يوضـح ديستويفسكي: **« مادام صـاحب فكرة اومبدأ ، فلا بد من أن يرفض مايورثه الواقع « الملوث » ان ينفصل عنه كلياً .. »**

ويصفه بقوله :

« وسرعان ما أصبح ريبياً على نحو رهيب ، ينكر كل ما لايؤمن به ، اي ينكر « الشر » ويتحداه . وحين يبلـغ به الأمر ان يدين كل شيء ، ويريد أن يحيا « فكرته » لم يكن له الا ان يحرق وراءه جميـع السفن .. »

وبذلك كان صالحـاً للمشروع ، فلا أهمية لنوع الفكرة التي يؤمن بها الانسان مادامت قد دفعته الى الرفض .

ولكن **ليبوتين** يرتبط بالاشخـاص الآخرين على نحو اكثر قوة ، انه يلتقي معهم في اكثر الاحيان ، ولكنه لايستطيع التحرر من تأثير ستافروغين . من هؤلاء مثلاً غرانوفسكي (كان في الواقع استاذاً في جامعة موسكو يمثل النزعة الى الغرب **« ان نتبنى الحضـارة الاوربية بكل مافيها »**) نموذج للقلق الذهني وتوزع الميول . الانسان الذي يخضـع لجميع المؤثرات ، انه في المخطوطة شخص لاأهمية له ، وتمثله الروايـة في صور متناقضة ، تهيمن عليه فكرة الكرامة الشخصية ، الى جانب التردد والجبن ، والاستسلام لارادة الآخرين . وعلى الرغم من هذا التصدع فهو يحتل القسم الاكبر من التحليل في صفحات الرواية . واحياناً يبدو شخصية رئيسية ، ويحمل اسم : ستيفـان تروفيموفيتش : ان طبيعة الانفعاليـة المذعنة تجعل حياته سلسلة من الألم والرياء .. يقول على فراش الموت :

« لقد كذبت طوال حياتي .. »

« ان قانون الوجود الانساني ، يقوم كله ، على ان الانسان يستطيع ان ينحني دائماً امام شيء عظيم بصورة لانهائية .. وحين يحرم الآدميون من هذا ، فانهم لايريدون الحياة .. ويموتون في القنوط .. » (١)

ذلك ان الطبيعة الانسانية تنطوي على الضآلة والهوان . ولكن هذه الطبيعة ذاتها ، تبدو على نحو منـاقض ، في شخصية شاتوف وهي تمثل

---

(١) الرواية صفحة ٦٠٥

الطرف الآخر في هذا الارتباك . انه يؤمن بالقيم الاجتماعية وبالشعب . ولكنه يملك وعياً عميقاً بالسقوط الذي يعيش فيه الجميع ، وتربطه بستافروغين اولا فكرة التحرر : الانسان الجديد . كتب ديستويفسكي في المخطوطة .

« ان فكرة الحرق والتدمير كانت تعذب فيتشايف كان يخفى ان يكون عدمياً ، ومن ثم لجأ إلى شاتوف من أجل « المشروع » ولكن شاتوف تردد . فسخر منه فيتشايف ... بعد ذلك قتل شاتوف على الأثر ... »

والواقع ان شاتوف كان الضحية البريئة في الرواية .. كان نموذجاً للانسان الحصيف الذي يرتبط بالواقع ارتباطاً انسانياً واعياً . مهما تكن الحياة مظلمة مزعزعة البنيان ، فانها تنطوي على أسس راسخة لاسبيل الى تحديها ، هذه الأسس يمثلها الشعب يقول :

« ان وصايتنا على الشعب وانفصالنا عنه قد كشف لنا في وضوح أولاً : انه لادعامة لمجتمعنا يحاول الدفاع عنها ، ثانياً : ان هذا المجتمع يكره الشعب لانه (اي الشعب) يملك دعائم متينة يتصدى للدفاع عنها ، ويحيا حياة ممتلئة ... اجل اننا نكره الشعب لان حياته ممتلئة » ويستطرد ديستوفسكي :

« كان شاتوف يتحدث عن الكراهية التي يكنها للشعب دعاة الحضارة الغربية ... ويسأل ـ ولكن الجميع تحت الوصاية ، كما هي حال الشعب . فيجيب ـ ولكنكم تعلمون ان الجميع تنكروا لوطنهم إلا الشعب ،الشعب لايكره وطنه ابداً .. »

ويوضح **شاتوف** هذه النظرة في الرواية .

« هناك قوة اخرى ، غير العقل والعلم ، تكون بها الجماهير وتتحرك ، قوة مهيمنة فعالة ، ولكنها مجهولة غير مفهومة .. انها الرغبة الملحة في الوصول الى غاية ، وهي في الوقت نفسه تتجاوز كل غاية .. انها روح الحياة ـ كما يقول الكتاب المقدس ـ .. إنها المبدأ البديعي كما يقول الفلاسفة والمبدأ الاخلاقي ايضاً .. ان هدف الشعب في كل حركة جماهيرية هي البحث عن الـه الخاص ...» (١)

ولهذا تحمل يقظة الشعب شعوراً متميزاً برسالة شاملة بقيادة العالم ...

ويبدو ان هذا الايمان بالشعب كان من العناصر الأساسية في موقف **ديستويفسكي** نفسه ؛ وكان يبلغ احيانا حد الصوفية القومية ، الثقة بقدسية الشعب وجدارته ، وهي الكلمة الأخيرة التي يقولها ستافروغين ، في المخطوطة :

« ان وطننا هو تجسيد للروح الارثوذكسية، وسكانه فلاحون **(كلمة فلاح بالروسية تعني الصليب)** Krest . الرؤيا ؛ وحكم الألف عام . ثم السيطرة الرومانية البغي ،

---

(١) الرواية صفحة ٢٣٢

الخضوع لاوربا « للحضارة » اللعنة الاخيرة التي جرها اصلاح بطرس الأكبر . ولكننا سوف نهم ونحطم اغلال اوربا التي ضيقت علينا الخناق من كل جانب . وسوف يتبين العـالم ، الكرة الارضية كلها ، اية روح عظيمة تأتي قناً ، من الشرق ، فتحرك الجماهير الاوربية لتجديد العالم . ذلك هو خطـاب الامير (ستافروغين) . ثم يذهب الى بطرسبورغ ويشنق نفسه . »

والواقع ان هذا الموقف يصدر عن حقيقة اساسية يوضحها ديستويفسكي في المخطوطة ، على النحو التالي : كل اصلاح جذري ينبغي ان يكون طبيعياً ، عودة الى شيء من الفطرة في حياة الشعب، **اما الاصلاح الذي يفرض من فوق فانه لايجدي نفعاً**، كل اصلاح يفرض إنما يقوم على فكرة « الحقوق » وهناك حقيقة اولى في حياة الشعب ، هي ان الطبيعة البشرية تتطلب شيئاً من روح التقديس ، اي ان على الشعب ان يسمو على حياته المتردية « ان يتوجه الى اللانهائي ... لحقيقة الثانية ، ان الحقوق — مهما تكن قائمة على المساواة والعدالة — تبقي الانسان كما هو ... عليه ان يتعلم كيف يتخلى عنها بملء حريته . ليس في ذلك شيء من الحرمان والعبودية ،أولاً، لأن التخلي يكون طوعياً ؛ ثانيـاً لأن الجميـع يتخلون ؛ اما الذين يرفضـون (وهم الاقلية) فانهم يجابهون الحرائق والدمار . بعد ذلك يصبح البشر اخوة . »

تلـك هي صورة المستقبل كما ينتهي اليها ديستوفسكي في المخطوطة مستنداً الى دعامة أساسية هي **الحس الاخلاقي ، ان يتجاوز الانسان حدود نفسه من أجل القيم السامية ..**

ولكن الانسان عاجز عن هذا السبيل ، لأنـه سجين نزواته ومصالحه ؛ وبذلك يبدو الخلاص أمراً مستحيـلاً : حتى الذين يبشرون بالمستقبل ، وهم يعيشون الانهيار ، يفشلون على نحو مضحك .

يقول ديستويفسكي :

« في هذا المجال ، ليس للفن ان يعطي كلمة أخيرة الا في صورة دون كيشوت . »

ولكن شيئاً واحـداً يمكن ان يكون نقطة البداية ؛ هو رؤية الحقيقة ، وذلك ما تمثلـه الشخصية الاخيرة في مسودة هذه الرواية ، ويمثلها كيريلوف . يكتب عنه :

« عند كيريلوف: فكرة شعبية : أن يضحـي بنفسه مباشرة من اجـل الحقيقة ... التضحية بالنفس ، وبكل شيء في سبيل الحقيقة : تلك هي السمة القومية للجيل ... لان القضية كلها تقوم على ان تعرف ما يعتبر حقيقة . ومن أجل هذا كتبت الرواية .. »

ولكن كيريلوف في الرواية يرتعـد امام الحقيقة ، فحين تتكشف الأمور في واقعها الفاجع ، يقف الانسان هذا الموقف المرعب :

« تصور صخرة معلقة في الفضاء ، فوق رأسك

تماماً، صخرة كاليبت، كالجبل ترن ملايين الاطنان.. ويمكن ان تسقط على رأسك في كل لحظة.» (١)

ويقول الراوية :

« ان الانسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة.. هكذا أفهم الامور، وهذا ما تريده الطبيعة.»

يجيب كيريلوف :

« بل هو الجبن .. هو الذي يخدعنا، الحياة هي العذاب، انها الرعب، والانسان كائن شقي كل شيء في هذه الأيام رعب وعذاب، والانسان اليوم يحب الحياة لأنه يحب الألم ... بل ليس الانسان في هذه الايام ماسيكون .. سيكون ثمة انسان جديد، سعيد، فخور .. سواء لديه ان يحيا أو لايحيا .. هذا هو الانسان الجديد، انسان المستقبل ... » (٢)



---

(١) الرواية صفحة ١٠٧

(٢) الرواية صفحة ١٠٨